وداع . . .

بقلم الدكتور طه حسين بك

لعل صدقى باشا يسمح لنا بأن نودع الحق والحرية الى حين بعد ان تفضل فأعلن اليهما ان مصر لم تعد لهما دار مقام ، وان عليهما ان يرتحلا عنها الي حيث يحبان حتى اذا تمت المفاوضات بيننا وبين الانجليز وانتهت الى ما نحب أو الى ما نكره وأذن الله لصدقى باشا ان يستريح كان من الممكن ان يحاولا العودة الى مصر فقد يؤذن لهما بهذه العودة وقد يردان عنها حسب ما تقضى به الظروف حينئذ ، فأما الآن فالدار بهما نابية والنفوس عنهما منصرفة والمصلحة العامة والخاصة تفضيان بأن يرتحلا وبأن يلتمسا لهما مقاما في مكان قريب أو بعيد في فلسطين أو فى سوريا أو فى لبنان . فكل هذه البلاد ترحب بهما ترحيبا حارا وتستقبلهما فى كثير من الرضى والاستبشار وإن كانت فلسطين مسرحا لهذا الصراع الهائل بين باطل الصهيونية وحق العرب وبين تسلط الاستعمار والطموح الى الاستقلال وان كانت هناك مفاوضات ختامية لا تمهيدية تدور في باريس لاستكمال الاستقلال لسوريا ولبنان واتمام الجلاء الكامل عن أرض سوريا ولبنان .

كل ذلك لا يمنع الحق والحرية من أن يعيشا فى أى قطر من هذه الأقطار لان حكومات هذه البلاد لا تضيق بهما ولا تشفق منهما ولا ترى فيهما خطرا على الامن ولا عقبة في سبيل المستقبل ولا مانعا من تحقيق الاستقلال

فأما مصر فأمرها عسير أشد العسر معقد أعظم التعقيد ، لان لها في المفاوضات مذهبا غير مذهب الحكومة ورأيا يناقض رأى الحكومة وما دامت مصر ليست هي التي ستفاوض الانجليز وانما ستفاوضها حكومة صدقى باشا فلا أقل من ان تذعن مصر للحقائق الواقعة وتصبر على ما تكره ونذعن لما لا تحب حتى يمضى الله أمراً كان مفعولا وليس من سبيل الى هذا الصبر ولا من امل فى هذا الاذعان الا اذا ارتحل الحق والحرية عن أرض النيل واقاما حيث يحبان في الشرق أو فى الغرب حتى تنتهى المفاوضات . فى أثناء هذا الوقت تستطيع الحكومة ان تقول ما تشاء وان تعمل ما تشاء وان تظهر المصريين على ما تحب وان تخفى عليهم ما تحب وان تأمرهم بما تريد وان تنهاهم عما تريد دون ان تخشى منهم انكارا لقليل أو كثير مما تقول أو تعمل ودون ان تخاف منهم مخالفة عن قليل أو كثير مما تأمر به أو تنهى عنه . هذا شرط أساسى لتستقيم الامور ولتستطيع الوزارة ان تتم ما هي مقدمة عليه من هذه المفاوضات الحرة الطليقة التى لا تتأثر بشرط ولا تتقيد بقيد وانما هي حرة كالنسيم الذي يجرى في الجو لا يعترضه معترض ولا يرده راد وواضح جدا ان حرية المفاوضات تقتضى تقييد الشعب . فليس من الممكن ان يجمع السيفان فى عمد وان تكون الحكومة حرة في مفاوضة الانجليز ويكون الشعب حرا في مراقبة الحكومة وما دامت مفاوضة الانجليز مفروضة لان الشعب ارادها وطالب بها فطبيعة الاشياء تقضى بان ينزل

الشعب عن حريته لان الذين يطلبون النتائج يجب ان يوافقوا على المقترحات والنتائج ها هي المفاوضات والمقدمات ها هى تقييد حرية الشعب .

هذا كلام يضحك منه الناس فى أى بلد من بلاد الارض في الشرق والغرب في فلسطين وسوريا ولبنان مثلا ، ولكن المصريين لا يضحكون منه ولا يهزؤون به وانما يرونه الجد كل الجد والصواب كل الصواب لان المصريين أعقل من أهل الأرض جميعا واعلم بحقائق الاشياء وفلسفة ارسطاطليس من أهل الأرض جميعاً وقد أنبأتهم فلسفة أرسطاطليس منذ عهد بعيد بأن من طلب الغاية أقر الوسيلة وما داموا يطلبون المفاوضات فيجب ان يقروا وسائلها وأيسر هذه الوسائل ان يمنح الحق والحرية أجازة يقضيانها خارج القطر ليستريح الشعب المصرى من البحث والتحقيق أولا ومن الاحتجاج والانكار ثانيا ومن المراقبة والمحاسبة ثالثا ولتستريح الحكومة من هذا كله وتفرغ للمفاوضات وليستريح الانجليز من هذا كله أيضا ويفرغوا للمفاوضات ولو أن الانجليز عقلوا كما يعقل المصريون وفهموا الأمور كما يفهما المصريون لتجنبوا كثيرا من هذا الخطأ الذي يدفعون اليه كل يوم ولتنكبوا كثيرا من هذا الشر الذى يتورطون فيه كل يوم ايضا . فالإنجليز يفاوضون مفاوضة مستمرة يفاوضون الروس ويفاوضون الأمريكيين ويفاوضون الفرنسيين ، ويفاوضون أمما أخرى صغيرة وكبيرة ولكنهم لا يبلغون من مفاوضاتهم شيئا وانما ينتهون بها او تنتهى بهم الى الاخفاق وليس لهذا سبب إلا ان الانجليز لا يفهمون الأشياء كما ينبغي ان تفهم فهم يفاوضون ويتركون الشعب حرا أثناء المفاوضة ثم يدهشون بعد ذلك حين يصيبهم الاخفاق ولو انهم عرفوا ما عرفته مصر من ان المفاوضة والحرية لا تجتمعان ومن احداهما يطرد الأخرى ولو انهم ساروا كما نسير نحن فتركوا الحرية حين يرغبون في المفاوضات وتركوا المفاوضات حين يرغبون فى الحرية لكتب لهم النجاح في كل ما يحاولون . ولكن الانجليز قوم فطروا على غرابة الاطوار ، فهم يؤثرون الحرية على كل شيء ، يؤثرونها حتى على نجاح المفاوضات مهما يكن موضوعها ومهما يكن خطرها . يؤثرونها حتى انهم ليحاربون فى سبيلها ، ويتعرضون لأعظم الهول : يؤثرونها ولكن لأنفسهم لا لغيرهم من الناس ، نستغفر الله ، بل هم يؤثرونها لأنفسهم ولكل ما يقيم في أرض الوطن البريطاني ويبخلون بها بعد ذلك على غيرهم من أهل الاوطان الأخرى . ألم أقرأ في إحدى الصحف الفرنسية ان نائبا بريطانيا قدم الى مجلس العموم عريضة وقعها أكثر من خمسين ألفا يطلبون فيها الرفق بالخيل التي تعمل في المناجم وتحديد ساعات العمل لهذه الخيل بحيث لا تزيد على ثماني ساعات في كل يوم .

قالت الصحيفة الفرنسية التي نشرت هذا الخبر ما أجدر الهنود بأن يقارنوا ويبتهجوا بنتيجة المقارنة

الانجليز إذن يؤثرون الحرية على نجاح المفاوضات وهم من أجل ذلك لم يمنحوا الحق والحرية أجازة يقضيانها فى فرنسا مثلا أثناء مفاوضتهم المتصلة وهم من أجل ذلك لا يصادرون التيمس ولا الديلي تلغراف ولا الديلى هيرالد ولا غيرها من الصحف .

وهم من أجل ذلك لا يحاصرون دور الصحف ولا يكلفون النيابة بأن تقوم بأعمال الرقباء وهم من أجل ذلك لا يحرقون الصحف تحريقا ولا يطمسون حروفها طمساً ، وهم من أجل ذلك لا يصدرون اليها التعليمات بما ينبغى ان تنشر وبما لا ينبغى ان تنشر ولا يكلفون الشرطة والنيابة مراقبة التنفيذ والخضوع لهذه التعليمات . هم لا يصنعون شيئا من ذلك وهم من أجل ذلك يخفقون فى مفاوضاتهم اخفاقا متصلا ولكنهم يحبون مصر اكثر مما يحبون انفسهم ويحرصون على مصلحة مصر اكثر مما يحرصون على مصلحة انفسهم يريدون ان تنجح مفاوضاتهم مع مصر وان اخفقت مفاوضاتهم مع الدول الأخرى ولذلك يلحون فى ان يكون جو المفاوضات صفوا صحوا لا تكدره المعارضة ولا تفضه الحرية ولا يفسده الحق . وقد هموا بان يقيدوا حرية الشعب البريطاني ويصادروا صحفه ولكنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلا لأن الفساد متأصل في النفس البريطانية فهي لا تعدل بالحرية البريطانية شيئا فاكتفوا مضطرين بان يقيد صدقى باشا حرية الشعب المصرى ويصادر الوفد والمصرى والبلاغ حين عجزوا هم عن مصادرة التيمس والديلي تلغراف والديلي هيرالد فشيء خير من لا شيء واذا لم يمكن اذلال الشعبين المتفاوضين فلا أقل من ان يذل احدهما واعقل الشعبين هو الذى يتبين الذل ويذعن للبطش ويستسلم للتحكم ويقبل أن تصادر صحفه وان يطرد الحق والحرية من أرضه رغبة في نجاح المفاوضات ، وأعقل الشعبين بالطبع هو الشعب المصرى الذي يفهم حقائق الأشياء ويتعمق منطق ارسطاطاليس ويعلم ان الذين يطلبون الغاية يجب ان يقبلوا الوسيلة ويقروها .

لهذا كله يرغب الانجليز الينا صادقين فى ان ننقى جو المفاوضات مما يكدره فنمنح الحق والحرية أجازة يقضيانها . فى ربوع لبنان . ولهذا كله نرغب نحن الى انفسنا في ان نريح مصر من الحق والحرية حينا ونريح الحق والحرية من مصر حينا ونقضى اسابيع أو أشهرا مطمئنين الى الذلة مستنيمين الى الهوان قانعين بما قسم الله لنا من هذه الحياة الفاترة الحلوة التي يحياها أصحاب السذاجة والغفلة من الناس ، يقال لهم ان الشمس تطلع من الغرب وتغرب فى الشرق فلا ينكرون مما يقال لهم شيئا . يؤمرون فيطيعون وينهون فيذعنون يساقون الى ما يراد بهم فينساقون لا لشيء الا لانهم يفهمون حقائق الأشياء ويتعمقون منطق ارسطاطاليس ويؤمنون بان الذين يطلبون الغاية يجب ان يقروا الوسيلة

كل هذا حق وكل هذا واقع ، واذا كان هناك شيء غريب يستحق البحث والاستقصاء فهو هذا الاستجواب الذي قدمه زعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ يسأل فيه رئيس الوزراء عن مصادرة الصحف كيف كان وكيف خولف به عن أمر الدستور .

كان زعيم المعارضة لا يعلم ان الدستور وسيلة لا غاية وان المفاوضات أعظم خطرا من الدستور وان الحرية شر لا بد منه . يحتمل حين لا يكون فى احتماله ضرر ويرفض كل الرفض حين يخشى منه الضرر . ولو كنت عضوا فى مجلس الشيوخ كزعيم المعارضة لعرفت كيف أرد عليه

وكيف أشكر لصدقى باشا حبه لمصر وعنايته بها وحرصه على مصالحها وأخذه إياها بأحسن الأدب وأرقاه وحمايته إياها من الحق والحرية وما يجر ان اليه من الآثام .

أنا إذن مؤيد لصدقى باشا كل التأييد يجب ان نصادر الصحف وان يراقب الناس فيما يقولون ويعملون وأن يرد المصريون الى ذلك العهد السعيد البعيد الذي كادوا ينسونه منذ ستة عشر عاما لينعموا بالحياة الهادئة الآمنة الراضية المطمئنة وليظفروا من الانجليز بالجلاء الصحيح غير المزيف وبوحدة وادى النيل من منبع النيل الى مصبه . فهذا أهم ألف مرة ومرة من الحق وأهم ألف مرة ومرة من الحرية وأهم ألف مرة ومرة من هذه الصحف التي تصادر ، ومن هذه الخسائر اليومية التي يحتملها اصحاب الصحف . ومن هذا الضغط اليومى الذى يجده المصريون حين يلتمسون الصحف فيقال لهم انها قد صودرت . وما الذى يخسره المصريون اذا لم يجدوا الوفد والمصرى والبلاغ وانهم سيجدون صحفا اخرى تنشر لهم الاخبار كما تحبها الحكومة ، وكما ينبغي ان تنشر الاخبار ليصفو جو المفاوضات ستغتنى صحف لان الناس سيشترونها راضين أو كارهين . وستفتقر صحف اخرى لان الناس سيصدون عنها صدا وليس بهذا بأس وليس في هذا غرابة فقد قال أبو العلاء منذ عشرة قرون :

غنى زيد يكون لفقر عمرو

إنا إذن أؤيد صدقى باشا كل التأييد وأوافقه على أن تصادر الصحف التي تخالف عن أمره وتحابى الصحف التي تذعن لأمره ، وعلى ان يسير الشعب المصرى على هوى صدقى باشا لا على هوى نفسه

ولو كنت وزيرا مع صدقى باشا او لو اتيح لى ان أشير على صدقى باشا لأشرت عليه بأن يريح نفسه ويريح وطنه ويريح حلفاءنا الانجليز من هذا الدستور الذي يشهره الخصوم في وجهه كل يوم لا تصادر صحيفة الا قيل له خالفت الدستور ولا يتخذ إجراء لحماية الأمن إلا قيل له خالفت الدستور ولا يتحرك الرجل حركة الا حوسب عليها باسم الدستور أليس من الطبيعي ان يريح نفسه وخصومه وهذا الدستور .

هو مقبل على المفاوضات وخصومه يشغلونه ويضيعون عليه الوقت بهذه الاستجوابات التي يقدمونها باسم الدستور أيهما أهم ان يشتغل صدقى باشا بالاستعداد للمفاوضات أو ان يضيع وقته فى الاستعداد للرد على الاستجوابات .

والدستور بعد ذلك قائم نائم قائم لأن البرلمان يجتمع ، ونائم لأنه يعطل في كل يوم بهذه المخالفات التي تقتضيها المصلحة ويفرضه الحرص على نجاح المفاوضات . الدستور قائم نائم كهذا المريض الذى ينهض اثناء الليل ويسعى لا يحس انه يسعى ويقدم ويحجم لا يحس انه يقدم أو يحجم .

فأى بأس على صدقى باشا وأى بأس على المصريين من ان ينام الدستور نوما عميقا متصلا حتى تنتهى المفاوضات إما الى جنة وإما إلى نار . واذا فرضت المصلحة على صدقى باشا ان يمنح الحق والحرية أجازة يقضيانها خارج مصر فلم لا تفرض المصلحة عليه ان يمنح النواب والشيوخ أجازة يقضونها فى الأقاليم ، وان يمنح الدستور نفسه أجازة يقضيها في درج من الأدراج .

ليصدقنى رئيس الوزراء ان وقته أنفس من أن يضيع فى هذا الكلام الذي لا يقدم ولا يؤخر ، ومن أن المصلحة الوطنية أنفس من أن تضيع في سبيل الحق والحرية والدستور . فليرح نفسه وليرح وطنه من كل هذه الألفاظ التي فقدت معانيها وأصبحت لا تدل على شيء . ولستُ أطلب إليه إلا شيئا واحدا ، ما أظن أنه يبخل به علينا فهو أكرم من أن يبخل به وأسمح نفسًا من أن يردنا خائبين .

شيء واحد هو الذى أطلبه لا أطلب معه شيئا آخر وهو يبتسم صدقى باشا ابتسامته الحلوة الراضية ويأذن لنا فى أن نودع الحق والحرية والدستور ولو إلى حين .

طه حسين

البلاغ ، ١٠ مارس سنة ١٩٤٦ .